﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾

[فصلت: 10 - 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ من بدائعِ الصُّنعِ في الأرضِ إلى شواهدِ القدرةِ في السَّماء

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة خلْقَ الأرض في يومين، وأبان سبحانه عَمّا أقرّوا به من عظيم إبداعه في خلق الأرض؛ أتبع ذلك بذكر ثلاثة أصناف من صنائعه العجيبة وأفعاله البديعة، شاهدةً بقدرته القاهرة وحكمته البالغة، فقال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾، ثم لمّا شَرَح كيفيَّةَ تَخليقِ الأرضِ وما فيها؛ أتْبَعَه بكيفيَّةِ تَخليقِ السَّماواتِ[1]، فهو انتقالٌ استدلاليٌّ من الأرض الَّتي يحيا عليها النّاس، إلى السَّماء الَّتي يستظلّون بظلِّها، ويهتدون بنجومها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَوَاسِيَ﴾: ثوابتَ، (رسو) أصلٌ يدُلُّ على ثَباتٍ[2]، والجبالُ الرَّواسي والرّاسيات: هيَ الثَّوابت الرَّواسخ[3]، والمعنى هُنا: الجبال الثَّوابتُ الرواسخ في الأرْضِ[4].

﴿وَقَدَّرَ﴾: التَّقْديرُ: الجَعْلُ والصُّنْع[5]، وأصل التَّقدير ضَبْطُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 544، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 150.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والراغب، المفردات: (رسا).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (رسا).
(4) السِّجستاني، غريب القرآن، ص: 239، وابن جرير، جامع البيان: 20/ 384، والباليسانيّ، حسن البيان، ص: 2211.
(5) الزَّبيدي، تاج العروس: (قدر).

الشَّيءِ القابل للتَّسيُّبِ أو الانبساط وحَكْمه وامتساكه على وضع أو كمٍّ أو مسافة معينة، فلا يتسيَّب، ولا يسترسل[1]، والمعنى هُنا: ضَبَطَ، وحَدَّدَ في الأرض مَقادير أرزاقِ جميع من يعيش على ظهرها[2].

2) ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾: (قوت) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى إمساكٍ وحِفظٍ وقُدْرَةٍ عَلى الشَّيءِ، والقوتُ ما يُمْسِكُ الرَّمَقَ[3]، وقاته يقوته قوتًا أطعمه قوته[4]، وإنَّما سُمّيَ قوتًا؛ لأنَّهُ مِساكُ البَدَنِ وقوَّتُهُ[5]، والمعنى هُنا: أرزاق أهلها ومعايشهم وما يُصلِحُهم[6].

3) ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾: الاستواء: العلوُّ والارتفاع، يُقال: استوى الرَّجل على ظَهْرِ دابَّته، أي: علا، واستقرَّ[7]، وكَذا استوى قصد، يُقال: فَرَغَ الأميرُ مِن بَلَدِ كَذا، ثمَّ استوى إلى بَلَدِ كَذا، مَعناه قَصَدَ[8]، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ[9]، واستَوى في هذا المَوضعِ بمعنى: عَمَدَ، وأقبَلَ، وقَصَد[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

آيـاتُ الجمال في خلق الأرض والسَّـمـاء ودلائـل الجلال فـي استسلام الكائنات

يُخبر رَبُّنا ﷻ أنَّه خَلَقَ الأرض، وأرسى فوقها جبالًا شامخات رواسخ، مِن فَوقِ ظَهْرِها، وجعل فيها البركات بما خَلَق فيها مِن المنافِعِ والخَيراتِ الكثيرةِ الدّائمةِ لأهلِها، وخلق أرزاق أهلها من النّاس والدَّواب بحكمة وإحسان، وكان ذلك في يومين آخرين، فاستوت أيّام خلق الأرض بما

(1) محمَّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قدر).
(2) الغزنويّ، باهر البرهان: 2/ 1271، والمكيّ، المعين، ص: 477.
(3) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (قوت).
(4) الراغب، المفردات: (قوت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قوت).
(6) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 188، وابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 238.
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (سوا).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (سوى)
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوى).
(10) وابن جزيّ، التّسهيل: 2/ 238. 238، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/ 255، وابن عادل، اللُّباب: 17/ 107.

فيها أربعةً تامَّةً لا تزيد، ولا تنقص، وقد جاء هذا تفصيلًا وبيانًا لمن سألَ: في كَم خُلقت الأرض وأرزاقها؟.

ولمّا بيَّن الله تعالى صنعة الأرض، وما حوت من عجائب الإبداع؛ أعقب ذلك بِذِكْرِ إحكامه في خلْقِ السَّماوات، فأخبر سُبحانه أنَّه علا، وارتفع قاصدًا إلى خلق السَّماء، وهي إذ ذاك دخانٌ مبسوط، فأمر السَّماء والأرض قائلًا: استَجيبا لأمْري، وانقادا لِطاعَتي اختيارًا أو جَبرًا، فجاءتا خاضعتين مستسلمتين، وقالتا: أتينا طائعين، فلا نخالِفُ إرادتَك رَبَّنا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

جعل الرَّواسي من تمام بيان قصَّة خلق الأرض

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ عطفٌ على فعل الصِّلة السّابق: ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: خلق الأرض، وجعل فيها رواسي؛ لتكون أوتادًا رواسخ أن تميد بأهلها، وقيلَ: هو عطفٌ على مقدَّرٍ، أي: خلقَها، وجعلَ فيها رواسي، وقيلَ: هو كلام مستأنف[2].

نكتةُ استعمال الجعل دون الخلق:

الخلقُ إيجادٌ من العدم، والجعل تحويل وتصيير للموجود

الجعلُ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ صِلةٌ ثانيةٌ في المَعنَى؛ جيءَ بفِعلٍ آخَرَ غَيرِ فعلِ ﴿خَلَقَ﴾؛ لأنَّ هذا الجَعْلَ تَكوينٌ آخَرُ حَصَلَ بَعدَ خَلقِ الأرضِ، وهو خَلْقُ أجزاءٍ تَتَّصِلُ بها، إمّا مِن جِنسِها كالجِبالِ، وإمّا مِن غَيرِ جِنسِها كالأقواتِ؛ ولذلكَ أعقَبَ بقَولِه: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ بَعدَ قَولِه: ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾[3]، فالخلق إيجاد من العدم، وكلُّ ما في الأرض من مادَّة خَلَقَ مع الأرض، ثُمَّ كانت التَّفاصيل والوظائف لهذه المادَّة بعد

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 384، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 342، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/ 126، 127، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 745، والشّنقيطي، أضواء البيان: 7/ 13.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 4.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 4، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 243.

الخلق، والجعل تحويرٌ وتبديل في نفس الشَّيء، فكان الخلق بالأرض أولى، وكان الجعل بالرَّواسي أنسب[1].

دلالةُ استعمال حرف الظرفيَّة:

الإشـارةُ إلى الأصل المغروز في الأرض للجبال وبيان إحكام الصَّنعة الإلهيَّة

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بهذا التَّركيب في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾، دون أن يقول: (وجعل رواسي فوقها)، فأُتي بهذا الظَّرف ﴿فِيهَا﴾؛ ليُشير إلى أنَّ الرَّواسي ليست مُجَرَّد معالم بارزة على سطح الأرض، بل هي مغروزة في أعماقها، ثابتةٌ في باطنها كما هي ظاهرة فوقها، فتلك الجبال الَّتي نراها شامخة، خَفيَ أصلها المغروز في الأرض؛ ولذا سُمّيت أوتادًا؛ لأنَّ الوتد منه ما يظهر، ومنه ما يستتر، في تشبيه دقيق لبيانِ إحكام الصُّنع وإبداع التَّكوين[2].

براعةُ استعمال مُفردة الرَّواسي دون الجبال:

الـرَّواسي تُمثِّل الجبال الشامخة ووظيفتها الراسخة

في تسمية الرَّواسي بهذا الاسم وجهان: أوَّلُهما: لعُلوِّ قِمَمِها وارتفاع رؤوسها، وثانيهما: الدَّلالة على رُسوِّ الأرض واستقرارها بها؛ إذ بها تثبت الأرض، وتستقيم فلا تميد بأهلها، فهذه اللَّفظة تجمع بَيْنَ العُلوِّ والشُّموخ من ناحية وبين الثَّبات والرُّسوخ من ناحية أخرى، وهذا كُلُّه شاهد على إتقان الخالق العظيم في جميل خلقه وجليل صُنعه، فهي تدلُّ في الجملةِ على معناها وحالها، وعلى الوظيفة الَّتي لأجلها جعلها الله فوق الأرض.

سرُّ حذف الموصوف:

لفتُ الأنظار إلى وظيفة الرَّواسي تحريكٌ للاعتبار

الرَّواسي: هي الثَّوابت الرّاسخة، وصفٌ خَصَّ الله به الجبال دون غيرها؛ إذ الجبال حجارة مهيبة مُستقرَّة لا تنتقل، على خلاف الرِّمال المُتحرِّكة والكثبان المُتغيِّرة، فلمّا عُلِمَ هذا؛ حُذِفَ المَوصوفُ (جِبالًا)؛

(1) حجازيّ، التّفسير الواضح: 3/ 326، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 339.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 125، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 339.

لِدَلالةِ الصِّفةِ عليه[1]، ولتقوية الالتفات إلى أنَّ الصِّفة هي المقصودة في النَّظم، وللإيجاز في المبنى التّابع لما ذُكِرَ من المعاني المهيبة.

براعةُ دخول حرف ﴿مِن﴾ على الظَّرف:

تحقيق الواقع المشهود لأنواع تلك الجبال وتنوُّعها وظهور منافعها

قال اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾، ولم يقل: (وجعل فيها رواسي فوقها)، فأتى بحرف ﴿مِن﴾ الدّال على الابتداء، أي: "مرتفعةً عليها لتكونَ منافعها معرَّضة لأهلها، ويظهرَ للنظّارِ ما فيَها من مراصد الاعتبار، ومطارحِ الأفكارِ"[2]، فذكر هذا الحرف لتوجيه الأنظار إلى تأمُّل هذه الجبال ابتداءً من فوقِها إلى آخرها علوًّا، ففيه استحضار الصّورة البديعة لجبالٍ شامخة، بعضها مُكَلَّلٌ بالخُضرة والزُّهور، وبعضها مكسوٌّ بالثُّلوج البيضاء، وبعضها أسود مهيب المنظر، كجبال البراكين، فضلًا عمّا يُثيره هذا الحرف من الوقوف على أسرار خلق الجبال، بما يُتيحه علم الجبال والجيولوجيا ضمن أدوات علميَّة قاطعة بمضامين العلم، لا بفرضيّات المعرفة الباهتة.

دلالةُ تقديم ذِكْرِ البركة على تقدير الأقوات:

البركةُ سرُّ تجلي صفة الرَّحمة الإلهيَّة بالخلائق كلِّها

ذُكِرَ قولُه تعالى: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بعد ذِكر خلقِ الأرض؛ لأنَّ البركة أوَّل ما يكون بعد الخلق والإيجاد، فهي أساسُ النَّماء والدَّوام، وجاء ذكرها قبل التَّقدير؛ ليكون التَّقدير مقرونًا بالبركة، فيفيض بالخير المستمرِّ الَّذي لا ينقطع، وإنَّما قُدِّمت البركة على التَّقدير؛ لتُهيِّئَ الأرض لاستقبال الأقوات المودَعة فيها، فتأتي نافعة دائمة العطاء، ظاهرًا وباطنًا، فالأرض باركها اللّه بعد أن خلقها؛ ليكون تقدير الأقوات مبنيًّا على بركتها، فالبركة أصلُ تقدير الأقوات، لا العكس، وبه يُعلم أنَّ اللّه تعالى جعل الأرض مباركة؛ لتكون البركة مهادَ تقديرِ الأقوات، وإنَّما نطلب رزقنا بالبركة، وهذا هو سرُّ العطاء

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 243.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 4.

الرَّبّانيِّ الَّذي لا يتخيَّله العقل البشري، إلّا بعطاءات الوحي المتدفِّقة، المنبئة عن الرَّحمة الإلهيَّة.

دلالةُ صيغة المفاعلة:

إفادةُ المُبالغة في عظم البركة وامتدادها واستمرارها

البركة - في معناها - تُفيد كثرة الخير ووفرة النَّفع، وقد جاء التَّعبير عنها بصيغة المُفاعلة في قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾؛ دلالةً على المُبالغة في عِظَم هذه البركة، واستغراقها لكلِّ شبرٍ من الأرض؛ إيذانًا باتِّساعها وامتدادها، فلا تُحصَر في موضعٍ دون موضع، ولا تُحدُّ بظاهرٍ دون باطن، فهي نعمةٌ غامرة، على وجه الأرض وباطنها، توزَّعت بين برِّها وبحرها، وعمَّت نباتها وحيوانها، حتى صار كلُّ مظهرٍ من مظاهرها شاهدًا على العطاء الإلهيِّ، وجاءت هذه الصّيغة بما تحمله من إيحاء الاستمرار؛ لتدلَّ على أنَّ البركة الَّتي بثَّها الله في الأرض ليست عطاءً عابرًا يزول، بل هي نعمةٌ مستمرَّة دائمة، لا تنقطع، ولا تنفد، يتجدَّد نفعها، وتتضاعف آثارها مع الزَّمان، بل تتضاعف آثارها، ويتجدَّد نفعها، شاهدةً على إحكام الخالق وحكمته، وواسع جوده وعظيم إحسانه.

دلالةُ استعمالِ مُفردةِ (قدَّر):

الإيماءُ إلى نهاية عمر الأرض بانتهاء تقدير الأقوات فيها

تقديرُ الشَّيء هو تحديد مقادير ذاته و صفاته، و تدبيره قبل إيجاده، وتقدير أقوات الأحياء والأشياء في الأرض، وهو جعْلُ مقاديرها وافية بحاجاتها على توالي أزمان بقاء الأرض والأحياء والأشياء فيها إلى يوم القيامة، فدلَّ لفظُ التَّقدير على نهاية العالم؛ لأنَّ التَّقدير له بداية ونهاية، وأنَّ هذه الأقوات مقدَّرةٌ بحسب عمر الأرض والبشر الَّتي عليها، وفي استعمال لفظ (التَّقدير) في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾، يتجلَّى عظيمُ التَّقدير الإلهيِّ؛ إذ جعل الله في الأرض أقواتًا موزونةً بقَدَرٍ معلومٍ، قَسَّمَها بين جهاتها على نحوٍ مُتقنٍ بديع، فجعل لكلٍّ

جهةٍ من جهات الأرض قسطًا من الأرزاقِ والقوت، يختلف في غيرها؛ ليُقيمَ بين العباد سُنَّة التَّكامل والتَّبادل.

بلاغةُ الإيجاز وبراعةُ الاختزال:

استيعابُ معاني تدبير الأقوات في الأماكن كلِّها والأزمان جميعها

الإيجازُ وسَعة المعنى وعُمقه وإعجازه يظهر في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾؛ إذ أودع البارئ جلَّ شأنه في الأرضِ طاقاتٍ عجيبةً، وقدراتٍ مُدهشةً تُنتجُ أقواتَ مَن يعيشُ عليها مِن إنسانٍ وحيوانٍ وطيرٍ، حتَّى ديدان الأرض تجد رزقَها في باطنِها، وحيتان البحر تجد في البحر أقواتها، فهي ثلاثُ كلماتٍ موجزات جَمعت من الفعل والخلق في البَرِّ والبحر ما لا يُحاط به، فهذا إعجازٌ ظاهر لا يُجارَى، ولا تبلغه فصاحةُ العربِ ولا بلاغتُهم، ثمَّ إنَّ البركةَ الَّتي أودعها اللّهُ في الأرضِ، وتقديرَ أقواتِها، ليست لزمنٍ أو جيلٍ واحد، بل هي عطيَّةٌ ممتدَّةٌ عبرَ الأزمان، متعاقبةٌ على الأجيال، كُلَّما جدَّ النّاسُ في استثمارِها، واستخرجوا خيراتِها؛ أمدَّتهم الأرضُ بالمزيد، فجادت عليهم بعطائها، لا تضِنُّ بخيرِها على العاملِ، مُسلمًا كان أو كافرًا[1].

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾ دون خيراتها:

قـوتُ الأرضِ كقوت الإنسان دائم مكنوز

آثر النَّظمُ الكريم استعمال مفردة ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾؛ لبيان أنَّ ما قدَّره اللّه تعالى فيها هو خير دائم، فشبَّه ما فيها من أرزاق بالقوتِ الَّذي يمتاز بطول الأمد، وأنَّه مكنوز مخزون في الأرض، مع ما فيه من الإشارة إلى أنَّ هذه الأقوات لها وقت تُخرَج فيه للنّاس، وأنَّ اللّه تعالى بنى الأرض على الأقوات طويلة الأمد، لا على الخيرات العاجلة، ففيه إيماء إلى أنَّ الأقوات مستمرَّة إلى انتهاء عمر هذه الأرض، وبفناء الأقوات يفنى العالم وما فيه.

بلاغةُ التَّعبير المجازيِّ:

أُضيف لفظُ الأقوات إلى الضَّمير العائد على الأرض في قوله

(1) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 339.

تعالى: ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾ على المجاز بحذف المضاف إلى الضَّمير، والتَّقدير: أقوات أهلها، أو تكون الإضافة مجازيَّة للاختصاص، ولا معنى لاختصاص القوت بالأرض[1]، أو أن يكون الضَّمير على سبيل المجاز المرسل، أي: أقوات الأرض، والمراد أقوات من يقطن الأرض، فذكر الأرض الَّتي هي المحلُّ، وأراد الحالَّ فيها، وهم أهلها.

عظيمُ تدبير الخالق في تقديره أرزاق أهل الأرض

نُكتة جمع الأقوات مُضافًا إلى ضَميرِ الأرضِ:

جَمْعُ الأقواتِ مُضافًا إلى ضَميرِ الأرضِ يُفيدُ العُمومَ، أي: جَميعَ أقواتِها، وعُمومُه باعتِبارِ تَعدُّدِ المُقتاتينَ، فهذا الجمعُ لا يقتصر على فئة واحدة من المخلوقات، بل يشمل جميع الأحياء، فما من كائنٍ يسكن الأرض إلّا وقد قدَّر الله سبحانه له فيها رزقه، فللدَّوابِّ رزقها، وللطَّير رزقها، وللحيوانات المُفترسة رزقها، وللزَّواحف رزقها، وللحشرات رزقها، وكلٌّ من هذه المخلوقات يجدُ في الأرض ما يتغذَّى به، وفي هذا عظيم تدبير الله سُبحانه؛ إذ جعل للإنسان من هذه الأقوات ما تستطيب نفسه، ويفيض عليه من نِعَم الله ما يُعينُه على قضاء حاجاته، كما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29]، فكلُّ شيءٍ في الأرض مُقدَّرٌ له رزقه، لا يُغادر من جُملته شيء، بل يسير وفق تقديرٍ حكيم[2].

إفادةُ العموم في الأقوات والمُقتاتين جميعًا

توجيهُ تخصيص الرَّواسي والبركة وتقدير الأقوات بالذِّكر:

تخصيصُ الأرض بتلك الأنواع الثَّلاثة العظيمة: الرَّواسي الَّتي تُمسكها، والبركة الَّتي أودعها فيها، وتقدير الأقوات الَّتي تسوق إليها، هو اعتناء من الخالق العظيم بالمُخاطَبين، وتدبيرٌ من حكيم خبير لما يصلح شأنهم، فقد بسطَ لهم في خِطابه مظاهرَ الرَّحمةِ والرَّأفة، مُظهرًا ما هيَّأه لهم من أسبابِ المعايش، فأعدَّ الأرضَ لهم

الاعتناءُ من الخالق العظيم بالمُخاطَبين في سياق الامتنان المبين

(1) الشِّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 297، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 126.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 244.

قرارًا، وأودعَ فيها البركات، ووزَّع الأقوات، وأقامَ من فوقها رواسيَ شامخاتٍ تحميها، وتثبتُها، فقد جعل لهم من الأرض ما يُعينهم على العيش، فالأرض قد زوِّدت بأسباب الرِّزق والثَّبات، ورتَّب لهم مبادئَ الرِّزقِ قبل أن تُنفخ أرواحُهم في أجسادِهم، وأُعطيت من البركة ما يعمُّها، ويغمرها، وقُدِّرَ فيها من الأقوات ما يفي بحاجات البشر والحيوان على السَّواء، وكلُّ ذلك شاهدٌ ناطقٌ يدعو العقولَ إلى الإيمانِ، ويزجر النُّفوسَ عن الكفرِ والطُّغيانِ، فما أبلغَه من خطابٍ! وما أعظمَ ما اشتمل عليه من عظةٍ وبيانٍ! فكان الأولى بهم أن يقابلوا هذا الإنعامَ بالشُّكر، لا أن يواجهوه بالكفر[1].

بلاغةُ الفذلكة ودلالتها:

الـدَّلالـةُ على أنَّها كانت أيّامًا كـامـلـة بـغـير زيادة ولا نقصان

قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ فذلكة لمدَّة خلق الأرض وما فيها، كأنَّه قال: كلُّ ذلك في أربعة أيّام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان، وهُنا يتبادر إلى الذِّهن سؤال: لِمَ لم يقل: (في يومين)، والأرض قد خُلِقت في يومين، وما جعله فيها من الرَّواسي والبركة، وتقدير الأقوات في يومين آخرين، فما فائدة هذه الفذلكة؟.

والجواب: أنَّه لمّا قال: في أربعة أيام، وقد ذَكَرَ أنَّ الأرض خُلِقَت في يومين، عُلِم أنَّ ما فيها خُلِق في يومين، فبقيت المُخايرة بَينَ أن يُقال: (في يومين) أو (في أربعة أيام سواء)، فكانت في قوله: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ﴾ فائدةٌ ليست في أن يُقال: (في يومين)، وهي الدَّلالة على أنَّها كانت أيّامًا كاملة بغير زيادة ولا نقصان، وعدل إلى ما جاءت عليه الآية للإيجازِ، واعتمادًا على اللَّحاق من قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، فلو كان اليومان اللَّذان قضى فيهما خلْقَ السَّماوات زائدين على ستَّة أيّام انقضت في خلق الأرض وما عليها؛ لصار مجموع الأيّام ثمانية، وذلك ينافي الإشارة إلى

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 5، والزُّحيلي، التّفسير المنير: 24/ 194.

عدَّة أيّام الأسبوع، فإنَّ اليوم السّابع يوم فراغ من التَّكوين، وحكمة التَّمديد للخلق أن يقع على صفة كاملة متناسبة[1].

دلالةُ لفظ ﴿سَوَآءً﴾:

الأيّـام الأربعة الَّتي خُلقت فيها الأرض، وقُدِّرت فيها الأقوات كاملة مُتساوية

كلمة ﴿سَوَآءً﴾ في قوله سبحانه: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ﴾ يُبيِّن أنَّ هذه الأيّام الأربعة تشمل يومين خُلِقَت فيهما الأرض، ويومين جُعِلت فيها الرَّواسي، وبورك فيها، وقُدِّرت أقواتها، والمعنى: أربعة أيّام كاملة، متساوية الأجزاء، ليس فيها نقص أو تفاوت؛ للدَّلالة على أنَّ تلك الأيّام الأربعة كانت مُتساوية غير مُختلفة، ولو جاء البيان بالتَّفريق، يعني: خلق الأرض في يومين، وجعل فيها رواسي، وبارك فيها، وقدَّر فيها أرزاقها في يومين؛ لاحتمل الكلام أنَّها ليست كاملة؛ لأنَّك تقول فعلت هذا في يومين؛ إذا فعلته في أكثر اليومين من غير استغراق لوقتها كاملًا[2].

بلاغةُ اختيار مُفردة ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾:

التَّنوُّع الدَّلالي والتَّجاوب البيانيّ للألفاظ والمعاني

لفظة ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ تتضمَّن وُجوهًا من المعاني البليغة؛ إذ تتنازعها أفعالٌ ثلاثة: (جعل) و(بارك) و(قدَّر)، فقد أُلحِقَت بكلٍّ منها، ودلَّت على بيانٍ شافٍ لمقاصد مُختلفة، فإن تعلَّقت بفعل (جعل) أو (بارك)؛ كان المعنى أنَّ هذا البيان الإلهيَّ موجَّهٌ إلى جمع السّائلين، أي: الطّالبين للمَعرفة والمتشوِّقين لفهْم دقائق خلق الأرض، وما أودع فيها، وإن تعلَّقت بفعل (قدَّر)؛ دلَّت على أنَّ المُراد بالسّائلين الطّالبون للقوت، أولئك الَّذين جَعَلَ اللّه لهم أرزاقًا موزونةً بعنايةٍ بالغة، تفي بحاجاتهم، وتسدُّ مؤنتهم، فالسّائل هُنا هو كلُّ طالبٍ في شتَّى صور طلبه، ويجوز أن تُقدَّر الجملة بفعلٍ محذوفٍ، بأن يُقال: (بيَّنّا ذلك للسّائلين)، أي: لمن أرادوا استيضاح مُدَّة خَلْقِ الأرض

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 188، وحقّي، روح البيان: 8/ 234، والسيرافيّ، التَّقريب، ص: 133.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 545، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 339.

وتفصيل ما فيها، فيكون هذا الإحكام في اللَّفظ جامعًا لِكُلِّ المعاني، دالًّا على رحمة الله بعباده في إجابة السّائلين عن حاجاتهم العلميَّة أو المادّيَّة، بما يظهر من شموليَّة العطاء الإلهيِّ وتمام الحكمة[1].

دلالةُ الوصل بالعطف بَينَ الجُمل الفعليَّة الثَّلاث:

ترصيفُ جواهر البيان في إبراز مظاهر الإتقان

جاء النَّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ بهذه الجُمل الفعليَّة المُتعاقبة، فوصل بينها بواو العطف تفصيلًا لمظاهر القدرة، وإتقان الصُّنع، فجاءت الأفعال: (جعل)، و(بارك)، و(قدَّر) في صيغة الماضي؛ إشارةً إلى تَحقُّقها وثباتها، ودلالةً على وضوحها لمن ألقى السَّمع، وأبصر بقلبٍ متفكِّرٍ، واتِّحاد هذه الجمل في كونها خبريَّة لفظًا ومعنًى، وفي المسند إليه وهو الذّات العليَّة، يزيد المعنى رُسوخًا، ويبرز عظمة البيان الإلهيِّ، فعطف بعضها على بعض، وهذا ما يُعرَف في البلاغة بالتَّوسُّط بين الكمالين[2].

نوعُ حرفِ التَّراخي ودلالتُه:

خلْقُ السَّماء جاء متراخيًا زمانًا ورتبةً عن خلْقِ الأرض

جاء العطف بحرف التَّراخي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، ولمّا كان خلقُ الأرضِ أوَّلًا، ثمَّ خلْقُ السَّماء، ثم دحو الأرض بعد ذلك؛ فإنَّ ﴿ثُمَّ﴾ هُنا للتَّراخي الزَّمانيِّ، فذكر أنَّه خلق الأرض أوَّلًا؛ لأنَّها كالأساس، والأصلُ أن يُبدأ بالأساس، ثُمَّ بعده بالسَّقف، كما قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: 29][3].

وتحتمل أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتبي؛ لما بينَ الخَلْقَين من التَّفاوت؛ لِقَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: 30]، أي:

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 188، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 67، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 288، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 245.

(2) العلياني، سورة فُصّلت دراسة بيانيَّة، ص: 361.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 165.

خلق الأرض أوَّلًا ثمَّ السَّماء، ثم دحا الأرض، وهي تدُلُّ على أنَّ مَضمونَ الجُملةِ المَعطوفةِ أهَمُّ مَرتبةً مِن مَضمونِ الجُملةِ المَعطوفِ عليها، فإنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ أعظَمُ مِن خَلقِ الأرضِ، وعَوالِمَها أكثَرُ وأعظَمُ، فجيءَ بحَرفِ التَّرتيبِ الرُّتبيِّ بَعدَ أن قُضيَ حَقُّ الاهتِمامِ بذِكرِ خَلقِ الأرضِ؛ حتَّى يوَفَّى المُقتَضَيانِ حَقَّهما، وتَرقّيًا مِن الأدْنى إلى الأعلى؛ لأنَّ الكلامَ مع المُعانِدينَ المُتمرِّدينَ، وقيل: ﴿ثُمَّ﴾ لِتَرتيبِ الخبَرِ على الخبَرِ؛ أخبَرَ أوَّلًا بخلْقِ الأرضِ، ثمَّ أخبَرَ بخلْقِ السَّماءِ[1]، ولا مانع من أن تكون للتَّراخي الرُّتبي والزَّماني بحسب الاعتبار في كلِّ معنى.

بلاغةُ فنِّ الاكتفاء:

الإيماءُ إلى مكانة السَّماء وشرفها

خصَّ النَّظم الكريم الذِّكر في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ بالسَّماء، والخِطاب المُترَتِّب عليه مُتوَجِّهٌ إليها وإلى الأرض مَعًا، كما قال تعالَى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾، وهذا من باب فنِّ الاكتِفاء بذِكرِ تَقديرِها وتَقديرِ ما فيها، كَأنَّه قيلَ: فقال لها ولِلأرضِ الَّتي قَدَّرَ وُجودَها ووُجودَ ما فيها: ائتيا طوعًا[2].

بلاغةُ التَّضمين:

تعدّى فعل ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ بحرف ﴿إِلَى﴾ لتضمينه معنى القصد، أي: لَمّا خلق تعالى الأرض؛ قصد إلى خلق السَّماء[3].

بلاغةُ التَّشبيه في لفظ ﴿دُخَانٌ﴾:

التَّشبيهُ في الواقع الغيبيِّ لا يسلم من القيل والقال

الدُّخان: ما ارتفع من لهب النّار، يُستعار لِما يُرى من بخار الأرض في حال جدبها واحتباس مائها، وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ هو من باب التَّشبيه البليغ الصّوريِّ؛ إذ شُبِّهت السَّماء في أوَّل أمرها

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 67، والطِّيبيّ، حاشية على الكَشّاف: 13/ 577، 578، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 245.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 5، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 582.

(3) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 48، 745، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 25/ 347.

بالدُّخان؛ لأنَّ صورتها صورة الدُّخان في رأي العين[1]، فلمّا كانت السَّماء أوَّل حدوثها مُظلمة؛ صحَّت تسميتها بالدُّخان تشبيهًا لها به، من حيثُ إنَّها أجزاء مُتفرِّقة غير متواصلة، عديمة النّور كالدُّخان، فإنَّه ليس له صورة تحفظ تركيبه[2]، وقال بعضهم: وهي دخان، أي: دخان مرتفع من الماء، والمراد بالدُّخان البخار الَّذي تتشكَّل منه الطَّبقات الهوائيَّة[3]، وهذا التَّوجيه البلاغيُّ يُستحسن عدم القطع به في أمر الغيب، فإنَّ تحقيق الأمر بشكلٍ قاطع لا يكاد يسلم من القيل والقال، وهي أقوال بيانيَّة، وحقيقة الأمرِ عند صاحب الأمر سبحانه.

توجيهُ الاستعارةِ والتَّمثيل في لفظ الإتيان:

احتمالُ الألفاظ لأنواعِ الاستعارات سَعةٌ تقبل جميع الأفهام

لفظُ الإتيان في قوله تعالى: ﴿ٱئۡتِيَا﴾، أصله: المجيء والإقبال، ولمّا كان معناه الحقيقيُّ غير مراد؛ لأنَّ السَّماء والأرض لا يُتصوَّر أن يأتيا، ولا يُتصوَّر منهما طواعيَّة أو كراهيَّة؛ إذ ليستا من أهل العقول والإدراكات، ولا يُتصوَّر أنَّ الله يكرههما على ذلك؛ لأنَّه يقتضي خروجهما عن قدرته بادئ ذي بدء؛ تعيَّن الصَّرف عن المعنى الحقيقيِّ، وذلك بأحد وجهين لهما من البلاغة المكانة العليا:

الوجه الأوَّل: أن يكون الإتيان مستعارًا لقبول التَّكوين، كما استُعير للعصيان الإدبار في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢﴾ [النازعات: 22]، فمعنى ﴿ٱئۡتِيَا﴾: امتثلا أمر التَّكوين، وهذا الامتثال مستعار للقَبول، وهو من بناء المجاز على المجاز، وله مكانة في البلاغة، والقول على هذا الوجه مستعارٌ لتعلُّق القدرة بالمقدور، كما في قوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82].

وقوله: طوعًا أو كرهًا كناية عن عدم البُدِّ من قَبول الأمر، وهو

(1) السَّمين، الدّر المصون: 6/ 58، والصّافي، الجدول: 24/ 291.
(2) حقي، روح البيان: 8/ 236.
(3) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 367، والهرري، حدائق الرَّوح والريحان: 25/ 347.

تمثيل لتمكُّن القدرة من إيجادهما على وفق إرادة الله تعالى فكلمة: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ جارية مجرى الأمثال، و﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ مصدران وقعا حالين من ضمير ﴿ٱئْتِيَا﴾، أي: طائعين أو كارهين.

الوجه الثّاني: أن تكون جملة: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ مستعملةٌ تمثيلًا لهيئة تعلُّق قدرة الله تعالى؛ لتكوين السَّماء والأرض لعظمة خلقهما، بهيئة صدور الأمر من آمر مطاع للعبد المأذون بالحضور لعمل شاقٍّ، فلا قول ولا مقول، وإنَّما هو تمثيل، ويكون طوعًا أو كرهًا على هذا من تمام الهيئة المشبَّه بها، وليس له مقابل في الهيئة المشبَّهة، والمقصود على كلا الاعتبارين تصوير عظمة القدرة الإلهيَّة ونفوذها في المقدورات دقَّت، أو جلَّت[1].

نكتةُ التَّخيير في الإتيان:

الأمرُ بالإتيان ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ هو من الكلمات الرَّبّانيَّة الصّادرة عن عِزِّ الألوهيَّة، الَّتي لا يمكن أن تصدرَ عن نفس بشريَّة، وخطاب السَّماء والأرض وقول الحقِّ: ﴿ٱئْتِيَا﴾ لا يصدر إلّا عن سلطان قادر قاهر، فإذا أُضيفت إليه كلمتا ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؛ دلَّ ذلك على نهايات الكمال في الهيمنة والملك والاقتدار وعزِّ الرُّبوبيَّة[2].

الدَّلالةُ على نهاية الكمال في الهيمنة والمُلك والاقتدار

بلاغةُ التَّعريض بلفظ الكره والطَّوع:

كلمة ﴿كَرْهًا﴾ أدلُّ على المقصود من كلمة ﴿طَوْعًا﴾، وفيها بيان تأثير قُدرته ﷻ فيهما، وأنَّ امتناعهما عن قدرته محال، كما تقول لمن تحت يدك: لتفعلنَّ هذا شئت أو أبيت، ثم إنَّ لفظة ﴿كَرْهًا﴾ تحمل شَوْبًا من التَّهديد للَّذين قالوا: قلوبنا في أكنَّة[3]، فهي تعريضٌ بالمشركين الَّذين لم يقبلوا دعوة التَّوحيد لا طوعًا ولا كرهًا.

التَّهديدُ وكمال الإذعان للتَّنبيه على تأثير القوَّة وشمول السُّلطان

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 247.
(2) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 346.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 164، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 346.

بلاغةُ الكناية في لفظَي الطَّوع والكره:

الخضوعُ والانقياد وعدمُ البُدِّ مِن قَبولِ الأمْرِ

قوله تعالى: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ كناية عن استحالة امتناعهما على قُدرته تعالى، وأنَّهما لا تملكان إلّا الانقياد والخضوع، فالكنايةُ هنا كناية عن صفة الخضوع والانقياد وعَدَم البُدِّ مِن قَبولِ الأمْرِ، وتَمَكُّنِ القُدرةِ مِن إيجادِهما على وفقِ إرادةِ اللَّهِ تَعالى[1].

بديعُ الطِّباق ودلالته:

شمولُ الخضوعِ الكامل والانقياد التّامِّ لجميع المخلوقات

بين اسمَي السَّماء والأرض، وكلمتَي ﴿طَوْعًا﴾ و﴿كَرْهًا﴾ محسِّن الطِّباق، وفيه دلالة على الخضوع والانقياد التّامِّ من السَّماء والأرض، وأنَّهما لا تملكان غير ذلك، فلم يكن منهما إلّا الامتثال والإذعان لقدرة العظيم الجبّار[2]، ودلَّ الطِّباق على الشُّمول والاستيعاب لكلِّ المخلوقات الَّتي تشملهما السَّماء والأرض، وأنَّها خاضعة في كلِّ الأحوال.

خطابُ الله تعالى للسَّماء والأرض بَيْنَ الحقيقة والمجاز:

الخطاب الإلهيُّ للمخلوقات يُحمل على حقيقته لدلالة العقل والنَّقل عليه

ذهبَ العلماء مذاهبَ شتَّى في الكشفِ عن حقيقةِ الخطابِ ومجازِهِ في خطاب الله تعالى للسَّماء والأرض، والصَّواب حمل الآية على ظاهرِها، فإنَّ اللَّهَ ﷻ خاطبَ الأرضَ والسَّماءَ خطابًا حقيقيًّا، فامتثلتا أمرَه، وقالتا: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾؛ إذ لا يقاسُ حالُ الخلقِ مع خالقِهم بحالِهم مع المخلوقين، فإنَّ الأمرَ الإلهيَّ ينفذُ إلى الجبالِ والطَّيرِ، كما في قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: 10]؛ إذ رجَّعت الجبالُ والطَّيرُ تسبيحًا مع داوودَ ﷺ، وكما في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44]، فما المانعُ أن تُخاطِب الأرضُ والسَّماءُ ربَّها خطابًا حقيقيًّا يُناسبُ مقامَهما مع خالقِهما[3]، وهذا يعني أنَّ لغيرِ العاقلِ إرادةً؛ لأنَّ الطّائعَ له إرادةٌ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 189، 190، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 68، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 290، وأبو السّعود: إرشاد العقل السّليم: 8/ 5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 247.

(2) العلياني، سورة فُصّلت دراسة بيانيّة، ص: 399.

(3) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 346.

ومَن يُتصَوَّرُ إكراهُه، فلَه إرادةٌ أيضًا، وإرادةُ كلِّ شَيءٍ بحَسَبِه، وقد وردَ أنَّ الصَّحابةَ كانوا يسمَعون تسبيحَ الطَّعام، وهو يُؤكَلُ، ولا تَسبيحَ إلّا بعدَ إرادةٍ، وثبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال في أُحُدٍ: «يُحِبُّنا ونُحِبُّه»[1]، والمَحبَّةُ أخَصُّ مِن الإرادةِ، وعلى هذا فهذه الجَماداتُ لها إرادةٌ وتُسَبِّحُ اللهَ ﷻ، ولكن لا نَفْقَهُ تَسبيحَها[2].

عِلَّةُ فصل جملة المحاورة:

التَّشويق لمعرفة الجواب يستدعي الفصل في جمل المحاورة

فصل قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ عن الجُملة الَّتي قبله؛ لأنَّه بمنزلة الجواب عن السُّؤال المُتبادر للذِّهن بعد سماع الأمر الإلهيِّ الموجَّه إلى السَّماء والأرض في قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾، كأنَّ سائلًا سأل: فما كان جوابهما؟ فجاء الجواب، فالفصل لشبه كمال الاتِّصال بين الجملتين، وفيه بيان المبادرة إلى الامتثال وسرعة الاستجابة من كلٍّ منهما، وهذه الصّورة في سرعة الاستجابة فيها مِن التَّقريع للَّذين قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ وردِّهم بذلك داعي الله، فجاءت هذه الآية؛ لتُبيِّن أنَّ الأرض والسَّماء ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾، وهذا هو المُناسب لمواجهة غطرسة المُستكبرين؛ لأنَّنا لا نرى في خَلْقِه أعظم وأجل من الأرض والسَّماء، وكلُّ مخلوقٍ مهما عظم جرمُهُ؛ فهو في قبضة خالقه[3].

نكتةُ صيغة جمع الجماد بجمع العقلاء:

تنزيلُ غيرِ العاقل منزلة العاقل عند اتِّصافه بصفات العاقل تعريضًا ببعض العقلاء

جاءت صيغة جمع ﴿طَآئِعِينَ﴾ على صيغةِ جَمعِ العُقَلاءِ؛ لأنَّ العادةَ في اللُّغةِ العَرَبيَّةِ أنَّه إذا وُصِفَ غيرُ العاقِلِ بصِفةٍ تختَصُّ بالعاقِلِ؛ أُجريَ عليه حُكمُه، ومنه قَولُه تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ

(1) الحديث: أخرج البخاريّ ومسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ، ينظر: البخاريّ، صحيح البخاريّ، كِتابُ الجِهادِ والسِّيَر، بابُ فَضْلِ الخِدْمَةِ في الغَزْوِ، برقم: (2889)، ومسلم، صحيح مسلم، كِتابُ الحَجِّ، باب: "أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنا وَنُحِبُّهُ"، برقم: (1393).

(2) تفسير ابن عثيمين - سورة فصّلت، ص: 77.

(3) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 345.

عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: 4]، فلَمّا كان السُّجودُ في الظّاهِرِ مِن خَواصِّ العُقَلاءِ؛ أجرَى حُكمَهم على الشَّمسِ والقَمَرِ والكواكِبِ؛ لِوَصفِها به، ووَجهُ تذكيرِ الجَمعِ في قوله تعالى: ﴿طَآئِعِينَ﴾ أنَّ السَّمواتِ والأرضَ تأنيثُها غيرُ حَقيقيٍّ، أو قد يكون المعنى: (أتَيْنا بمَن فينا طائِعينَ)، فيكونُ فيه تغليبُ العاقِلِ على غَيرِه[1]، وفي هذا الجمع تعريضٌ بهؤلاء الَّذين ضلَّت عقولهم، فتردَّت بهم سفاهتهم في هوَّة الشِّرك والغواية، فكأنَّ الآية الكريمة تُجَسِّدُ المفارقة الواضحة بين تلك الجمادات الَّتي لا تملك إلّا الطّاعة والانقياد المُطلق لجبروت الخالق ﷻ، وبين هؤلاء الملاحدة من بني البشر (العُقلاء) الَّذين تَعَطَّلت عُقولهم، فانغمسوا في حمأة المعصية بين إشراك به واقع، وإعراض عن آياته ودلائل قدرته مُتوقَّع.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإكراه والإجبار:

الإجبارُ، حملُ الإنسانِ غيرَه على الفعل مع الإبعاد على تركه، والإكراه أعمُّ

الإكراه: خلاف الرِّضا والمحبَّة، ويُقال في حمْلِ الإنسان على ما يكرهه[2]، قسرًا وجبرًا، فمعنى الإكراه لغةً يدور حول المشقَّة والشِّدَّة، وعدم الرِّضا والمحبَّة وعدم الاختيار، وحمل الآخر على ما يكرهه بالوعيد الشَّديد والإلزام والإجبار على ما يكرهه الإنسان طبعًا أو شرعًا[3]، والمقصود بالإكراه في الدّين إجبار الإنسان على اعتناق دين جبرًا عنه، بأيِّ نوع من أنواع الجبر والقهر.

ويُعرَّف الإجبار لغة بالقهر والإكراه، يقال: جبر الرَّجل على الأمر يجبره جبرًا وجبورًا، وأجبره: أكرهه[4].

(1) الشِّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 204، 205، وابن الشَّجري، الأمالي: 2/ 47 - 49.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كره).
(3) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 50.
(4) ابن منظور، لسان العرب، والجوهريّ، الصّحاح: (جبر).

فالإكراهُ في اللُّغة يساوق الإجبار – كما عرَّفه اللُّغويون – إلّا أنَّ بعض المحقِّقين جعله أعمَّ منه؛ إذ ذهب إلى أنَّ الإجبار هو حمْلُ الإنسان غيره على الفعل مع الإيعاد على تركه، بينما قد يصدق الإكراه بالحمل على الفعل من دون إيعاد على تركه، كما إذا طلب منه أبوه أو أمُّه أو زوجته فعلًا، ولم يكن مجبرًا عليه، إلّا أنَّه يريد إرضاءهم وعدم مخالفتهم، كما أنَّ في الإجبار معنى الاستعلاء[1].

(1) التَّهانوي، كشّاف اصطلاحات الفنون: 1/ 549.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"